الربح، وموت في صحراء لاحياة فيها. ولم يكتف بهذه الادانة، انما اطلق صرخته ــ النبوءة: «لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟»، مهيباً بهذا الشعب ان يتحرك، فالموت محدق به من كل جانب. واذا كان السكوت موتاً، والفرار موتاً، فالحركة الوحيدة المنطقية، التي تمثل الرد المبرر، تكمن في «دق جدران الخزان». ان للسكوت مبرره، اذا كان يضمن السلامة والنجاة، وكذلك الفرار. ولكن عندما يكون الفرد والمجتمع محاصرين بالهلاك، فإن الحركة ــ الفعل، ان لم تغير الوضع نحو الافضل، فهي لاتجلب خسارة غير متوقعة. وعندما تحركت طلائع شعبه، في عام ١٩٦٥، لتدق جدران الخزان ــ الموت، كتب روايته الثانية: «ما تبقى لكم»، ١٩٦٦، ليطرح حتمية المواجهة مع العدو الصهيوني، طريقاً وحيداً للخلاص، من خلال المواجهة بين حامد الهارب نحو امه في الاردن، والجندي الاسرائيلي الذي صادفه في الطريق. ان الفارق بين هروب حامد وهروب «رجال في الشمس»، يكمن في الاتجاه. الاول يهرب نحو الأم ــ الارض، في حين ان الآخرين يهربون بعيداً عنها، لذلك اختلفت النتيجة. الهاربون بعيداً عن الارض، كان مصيرهم موتاً شنيعاً، كله خسارة، في وضع لايليق بالانسان، قرب مقالب الزبالة. في حين، ان (حامد) الهارب نحو الأم ــ الارض، وجد نفسه في وضع مختلف، بمجرد مواجهته وتحديه ــ كمبدأ ــ للجندي الاسرائيلي؛ ففور اتخاذه القرار، وقبل ان يدخل مرحلة التنفيذ، يتحول حساب الخسائر الذي كان يحيط به من كل الجوانب، الى ربح واضح وملموس. ان مجرد قرار المواجهة جعله يشعر ان ليس لديه مايخسره، فقد فوت على عدوه فرصة تحويله الى ربح يضاف الى ارباحه السابقة. عندما اتخذ قرار الفعل، اختل ميزان القوى، وبدأت الامور تعمل لصالحه للمرة الاولى، بعد ان كانت كلها في غير صالحه. لماذا كان موقف «حامد» في حدود قرار المواجهة، دون ان يقترن القرار بالفعل؟. ان هذا ينسجم مع طبيعة حركة المجتمع في ذلك الوقت، حيث كانت مواجهة العدو الصهيوني، ماتزال بدايات فردية، لم تؤثر بعد في جسم الخصم. في عام ١٩٦٩، تصبح المواجهة في وضع مختلف، فقد نمت البدايات الاولى، لتأخذ طابع حركة جماهيرية، تستقطب قطاعات واسعة من الجماهير، بعد أن ادركت ان الكفاح المسلح طريقها الوحيد والمضمون، لكسر اغلالها وقيودها، وتحقيق كرامتها. ويستجيب الفن الروائي عند غسان القريب من الجماهير، لهذا التطور الحاصل في بنية مجتمعه، فكانت روايته «أم سعد» ــ ١٩٦٩، التي اعلن فيها التحامه مع الجماهير، معبراً عن ارادتها، بعد ان اصبحت سيدة الموقف، وكان شعاره: «اننا نتعلم من الجماهير ونعلمها». وفي الوقت ذاته يسلط الاضواء على الطبقة الفلسطينية التي «دفعت غالياً ثمن الهزيمة والتي تقف الآن تحت سقف البؤس الواطي في الصف العالي في الحركة وتدفع، وتظل تدفع اكثر من الجميع».

وفي العام نفسه (١٩٦٩) كتب روايته الرابعة: «عائد الى حيفا»، ليعلن، عبر الممارسة التي قام بها «سعيد. س»، الطلاق النهائي للماضي، وضرورة الالتحام بمدرسة الجماهير ــ الثورة التي تمثلها «أم سعد». وكأنه باختياره، «سعيد. س» فلسطينياً من ابناء الطبقة البرجوازية، اراد ان يدين تردد تلك الطبقة وتذبذب مواقفها. و«سعيد س»، قبل عودته الى حيفا زائراً، كان قد منع ابنه (خالداً) من حمل السلاح في صفوف الثورة،